نقد ترجمات القرآن

قراءة في كتاب "ترجمات القرآن إلى أين؟ وجهان لجاك بيرك" للدكتورة زينب عبد العزيز

عبد الخالق رشيد/ جامعة وهران

توطئة:

جاك بيرك عملاق من عمالقة الفكر الفرنسي المعاصر وعلم من أعلام الاستشراق، اشتهر في الأوساط المثقفة، لاسيما العربية والإسلامية، بموضوعيته في طرح ومعالجة القضايا التي كان يتعرض لها بالبحث والتحليل، كما تسجّل لحسابه معرفته المعمّقة بتاريخ العرب وقضاياه من خلال الوظائف المتعدّدة التي تقلّدها في بلدان المغرب العربي، الواقعة آنذاك تحت نير الاستعمار الفرنسي الغاشم، والتي ساعدته على معايشة الأهالي عن كثب، وحبّه للشرق لدرجة تقليد الأهالي في مأكلهم وملبسهم، فقد كان ببساطة صديق العرب. ويضاف إلى ذلك كلّه إتقانه للغة العربية بدليل عضويته في مجمع اللغة بالقاهرة.

فلمّا عزم على إنجاز ترجمة للقرآن الكريم استبشر المحبّون للفكرة ورحّبوا بها، لاعتقادهم بأنّ رجلا تتوفّر فيه هذه المواصفات لا يمكن إلاّ أن يقدّم ترجمة أمينة قدر الإمكان للقرآن، تقرّب معانيه من النسخة الأصلية، لاسيما وأنّ جمهوره كان، في

غالبيته، من المفرنسين الذين لا يستطيعون التواصل السليم مع القرآن باللغة العربية.

وتمرّ عشر سنوات لتظهر أخيرا هذه الترجمة المرتقبة، وأقبل عليها المريدون بشغف، وسارع جمع منهم إلى تقريضها لدرجة أنّ بعضهم وصفها، بكلّ بساطة، بأنها القرآن مكتوب باللغة الفرنسية.(زينب-5) لكن سرعان ما ارتفعت أصوات ترتاب في صحة هذه الترجمة بل وتشكّك في نوايا صاحبها. ومن بين هؤلاء الباحثة **زينب عبد العزيز** أستاذة الحضارة ورئيسة قسم اللغة الفرنسية في إحدى الجامعات المصرية.

تعلن هذه الباحثة منذ البداية أنّ تصدّيها لهذه الترجمة بالذات دون غيرها لم يكن "لمجرّد أنها من أحدث الترجمات التي ظهرت لمعاني القرآن... وإنّما لكلّ ما واكبها من مساندة إعلامية مغرضة شائهة الأسانيد والمرامي، مشحونة بالمغالطات التاريخية والدينية".(زينب-5) وتشير الباحثة بلفظ "المغالطات" إلى ما شاب هذه الترجمة من أخطاء وتحريفات للكلم عن مواضعه بشكل ملفت، حيث لا تكاد تسلم منها صفحة من صفحات الترجمة.

ولا تستبعد الباحثة أن تكون الأخطاء التي تعجّ بها هذه الترجمة موجّهة لخدمة أغراض تصبّ كلّها في النيل من الإسلام من خلال الافتراء على رموزه الأساسية وهي: القرآن والله ورسوله الكريم(ص) وبعض صحابته الأطهار.

وقد اعتمد بيرك لتمرير مغالطاته على الثقة التي اكتسبها في أوساط المثقفين العرب والمسلمين. وبالتالي، فإنّ ما أنجزه الرجل لا يعدو أن يكون من جنس ما قام به المستشرقون السابقون عند تعرّضهم للقرآن، فترجمته للقرآن تندرج- حسب الباحثة- ضمن المحاولات المتتالية لجمع كبير من المستشرقين الذين سعوا إلى ترجمة القرآن بدافع النيل منه ومن رسوله(ص)، انطلاقا من ترجمة "بطرس المبجّل" في القرن 12م، التي وصفها **رجيس بلاشير** نفسه بأنّها كانت استمرارا لروح الصليبية، وأنّها لم تكن أمينة بالمرّة، وانتهاء بترجمة **نولدكه** الذي وصلت به البجاحة وروح الانتقام إلى وصف الرسول بأنّه "صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوّشة الأسلوب".(زينب-6 و7)

ويبدو أن جاك بيرك نفسه قد اعترف بما في ترجمته من أخطاء، حيث تذكر الباحثة أنّ أحد تلاميذ بيرك قد أعلن على لسانه، في مؤتمر" نحو مشروع حضاري جديد" المنعقد بالقاهرة سنة 1999، أي ثلاث سنوات بعد صدور الترجمة، أنّ "جاك بيرك يأسف لما صدر عنه عفوا وهو على استعداد لتصويب هذه الأخطاء".(زينب-9) لكن يبدو أنّ ثلاث سنوات، مع افتراض أنّ بيرك قد صوّب أخطاءه، كانت كافية لفعل فعلتها في نفوس المتلقّين الغربيين، وهم المقصودون أصلا بهذه الترجمة، لأنّ الباحثة لم تجد مبرّرا لتوقيت صدور ترجمة بيرك، سوى أنّه يستهدف بها "التصدّي

لروح التديّن التي يُبديها الغرب عزوفا من العالم المادي الذي يطبع الحضارة الغربية المعاصرة، واستدارتهم إلى الإسلام لعلّهم يجدون فيه الجواب لطلبهم. فهذه الروح هي التي رغب بيرك في محاربتها بتقديم ترجمة مشوّهة للقرآن موجّهة خصوصا للغربيين الذين يتكلّمون الفرنسية".(زينب-11)

- **خطوات المنهج النقدي:**

بعد أن كشفت الباحة عمّا تسمّيه الوجه الآخر لجاك بيرك، شرعت في تتبّع نقائص وأخطاء ومغالطات المترجم، غير أنّها لم تعتمد خطّة واضحة لدحض افتراءات بيرك على القرآن، ما عدا أنها استهلت نقدها بالتعرّض إلى ما ورد في مقدمة الترجمة من مغالطات أوّلا، ثم انتقلت إلى تفحّص ترجمة أسماء السور وما ورد فيها من تحريف، وانتهى بها الأمر إلى تتبّع جملة من الأخطاء في ترجمة بعض الألفاظ والتراكيب القرآنية أدّت إلى إغماض العبارات وتشويه معانيها، محاولة ربط هذا المنحى التُّرجمي بتوجهات بيرك وأهدافه غير المعلنة. مع العلم أنّ الباحثة قد ركّزت نقدها على سورة البقرة ولم تتعدّاها إلى سور أخرى إلاّ إذا استدعت الضرورة ذلك، كالمقارنة لإظهار التناقضات التي وقع فيها المترجم مثلا.

وعلى العموم يمكن القول أنّ الذي كان يوجه نقد الباحثة لترجمة بيرك هي الغيرة على الإسلام وخيبة الأمل التي شعرت بها، كما شعر بها آخرون، وهي تتفحّص هذه الترجمة التي كان يُفترض فيها، بحكم السّمعة الطيبة التي سبقت صاحبها، أن تكون

أمينة وأكثر قربا من روح النص العربي. ولا تثريب على الناقدة، فإنّ الكتابة تحت الصدمة لا تجعل صاحبها يفكّر في ضوابط المنهج، بل هو التنديد ومخاطبة الضمائر الحيّة للاحتراز ممّا يُقدّم لها.

1- نقد المقدّمة:

افتتح جاك بيرك ترجمته للقرآن الكريم بمقدّمة مطوّلة، تقع في حوالي ثمانين صفحة، بسط فيها الكلام حول قضايا ذات علاقة بالقرآن، وهي كلّها من القضايا التي أثارت جدلا قديما وحديثا بين العلماء المسلمين ومناوئيهم من أصحاب الملل والنحل التي نصبت العداء للإسلام. ورغم علم بيرك بأنّ معظم هذه القضايا مستهلكة، وقد أجاب عليها علماء السّلف والخلف، إلاّ أنّه أبى إلا إعادة طرحها بمنهج يغلب عليه الطابع الجدلي وبلغة تحكمها الضبابية وغير قليل من غموض العبارة الذي لا يُفضي في نهاية المطاف إلاّ إلى إدانة الإسلام والتشكيك في القرآن.

ومن هذه القضايا نذكر على سبيل المثال لا الحصر:[1]

- التشكيك في نزول القرآن، ونقد طريقة جمعه وترتيب آياته وسوره.
- القول بتأثر القرآن بالشعر الجاهلي والفكر اليوناني القديم؛ والمقصود هنا ليس التأثر اللغوي، فذلك أمر مفروغ منه

عند الحديث عن لغة القرآن ولغة الشعر الجاهلي، بل المقصود هو التأثر من حيث القيم والأحكام.

- احتواء القرآن على خط أسطوري ميثولوجي ولفلسفة كارثية النزعة للتاريخ.
- التناقض بين الحث على التفكير وإعمال العقل من جهة والمطالبة بالإيمان بالغيب من جهة أخرى.
- نقض التوحيد بدلالة اعتماد الله في التعبير عن ذاته بالجمع تارة والمفرد تارة أخرى.
- إثارة قضية خلق القرآن.
- زعمه أنّ القرآن قد حرّف الهوية الأساسية للمسيحية بالطريقة التي تناول بها الأساطير الإنجيلية.[2]

والقائمة طويلة. وبغضّ النظر عمّا غصّت به هذه المقدمة من اتّهامات باطلة للقرآن وللنّبيّ محمد(ص)، إلاّ أنّ الحقيقة تفرض القول بأنّ جاك بيرك قد انطلق في ترجمته للقرآن من أرضية مغلوطة توحي بأنّ في القرآن غموض وتلاعب وأنّ الرسول (ص) كان وراء هذا التلاعب ثمّ الصحابة فالمفسّرون.

2-تسمية السّور:

شكّلت ترجمة أسماء السّور معضلة في وجه المترجمين لأنّ بعضها، على الأقل يستعصي على الترجمة لإحالتها على أسامي لا مقابل لها يؤدّي معناها في اللغة الهدف. وقد اهتدى المترجمون إلى طريقة تجنّبهم هذا الإشكال، وهي استعمال الاسم الأصلي العربي

وكتابته بأحرف اللغة الهدف مع مراعاة المميّزات الصوتية. غير أنّ بيرك لم يلتزم في أحيان كثيرة بما توصّل إليه من سبقه من المترجمين، وعمد، في مقابل ذلك، إلى اقتراح أسماء لا توافق الأصل العربي من جهة، وتخدم أغراضا معيّنة من جهة أخرى. ومن ذلك مثلا، أنه حاول بكلّ ما أوتي من دهاء اجتناب توظيف لفظ النصر ومشتقاته فيما حققه المسلمون من انتصارات ذكرها القرآن[3]؛ فسورة "النصر" ترجمها إلى(le secours)، أي النجدة، وترجمة سورة "الفتح" بعبارة غريبة وهي: (tout s'ouvre)، مع أنّ بعضا من المترجمين السابقين له، وهم كثر، ترجموا النصر والفتح ب(la victoire). وحينما تعرّض إلى الآية الأولى من سورة الفتح التي يقول فيها المولى عزّ وجلّ: (إنّ فتحنا لك فتحا مبينا)، يترجمها بقوله:

- C'est bien nous qui pour toi ouvrant l'ouverture éclatante.(554)

وهي ترجمة تتحاشى الإشارة إلى الانتصار المتضمّن في الفتح، بالإضافة إلى ركاكتها الناتجة عن الترجمة الحرفية المشوّهة للمعنى. وكان في مقدوره أن يستند إلى ترجمة "كازيميرسكي" الذي أحسن التعبير عن هذا المعنى إذ قال:

- Nous t'avons accordé une victoire éclatante. (Kasimirski- p.495)

وكذلك فعل معاصره الفرنسي "مونتيه"، إذ ترجم الآية بالعبارة التالية:

- En vérité nous t'avons fait remporté une victoire éclatante.(Montet-2/233)

أمّا سورة "الإسراء" فقد ترجمها ب"Le trajet nocturne" أي المسار الليلي، وكان في وسعه أن يترجمها على الأقلّ ب" Le voyage nocturne"، كما فعل كلّ من كازيميرسكي(249) و مونتيه(1/357). ولم يكتف بذلك فأضاف لها عنوانا آخر هو "بنو إسرائيل"، وهو غير وارد في المصاحف المتداولة.

وقس على ذلك ترجمته لسورة الروم ب(Rome) عاصمة الرومان، وعلّل لهذه التسمية في الهامش بقوله:"تقول روما لأسباب الصوت والترخيم،حيث كان لا بدّ من وضع "البيزنطيون" بالطبع"(زينب-229)، وليته فعل، لأنّ الترجمة لا تأخذ بعين الاعتبار مثل هذه الحجج إذا كانت على حساب المعنى.

وكذلك ترجمته لسورة "التكاثر" ب" Rivaliser par le nombre"، أي التنافس بالأعداد، والمقصود من محتوى السورة كما ترشد إلى ذلك بعض التفاسير هو التنافس في جمع الأموال.(الزمخشري-4/281) وقد كان كازيميرسكي(635) – مثلا- أكثر توفيقا حينما ترجمها ب "Le désir de s'enrichir"، أي الرغبة، أو السعي إلى الغنى.

3-الاعتماد على الترجمة الحرفية:

من أبجديات العمل الترجمي مراعاة الأمانة في نقل المعاني ما استطاع المترجم إلى ذلك سبيل، ومن ثمّ كانت الترجمة الحرفية مذمومة، لأنّها تشوّه التعبير وتجور على المعنى. ومن أساسيات الحفاظ على المعنى مراعاة السياق الذي وُظفت فيه الألفاظ، إذ لا دلالة للفظ خارج السياق.

إنّ ما يظهر من ترجمة بيرك التي بين أيدينا أنّه لم يحترم هذه القاعدة الأصل في الفعل الترجمي في كثير من الأحيان، فجاء بترجمات تنبو عن الذوق السليم؛ كترجمته لكلمة "الألباب" ب" La moelle"، أي النخاع في 16 مرّة ورد فيها هذا اللفظ في القرآن (زينب-24)، فذوو الألباب تتحوّل باعتماد هذه الترجمة إلى " ceux dotés de moelle" (berque-92) وهو كلام لا معنى له، فإذا مدحت بها شخصا تكون قد أسأت له من حيث لا تعلم، لأنّ المقصود بها في اللغة العربية، التي يتقنها بيرك تمام الإتقان، هو ذوو العقول أو الأفهام النيّرة. والأقرب في ترجمتها إلى الفرنسية القول (Les hommes doués d'intelligence)، وكذلك فعل كل من كازيميرسكي ومونتيه عند تعرّضهما لترجمة الآية 190 من آل عمران:

-Il y a sans doute des signes pour les hommes doués d'intelligence.(Kasimir-67)

-Il y a des signes pour ceux qui possèdent l'intelligence.(Montet-1/140)

وقد تزداد الترجمة سخفا حينما لا نراعي السياق الذي وُظفت فيه الكلمة رغم وضوح دلالتها المجازية. ومن ذلك مثلا ترجمة بيرك لقوله تعالى: (ولكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاج)(المائدة-48)، حيث نقلها بعبارة:

-A chacun de vous nous avons ouvert un accès, une avenue.(129)

رغم علمه اليقين بأنّ الشريعة من الشّرع ويقابلها في اللغة الفرنسية (le code ou la loi)، أمّا المنهاج في هذا الاستعمال فهو (la règle de conduite). وبهذا المقابل وردت عند كلّ من كازيميرسكي(ص99) ومونتيه (ص1/155).

وقس على ذلك ترجمته لقوله تعالى (إنّ الله لا يُخلف الميعاد)(الرعد-31) بقوله:

- Dieu ne manque pas au rendez-vous.[4]

وكأنّ لله مواعد يرتبط بها فلا يُخلفها. والمعنى المقصود هو عدم إخلاف الوعد الذي يقطعه على نفسه، والأولى ترجمة الآية بالعبارة التالية (promesse Dieu ne manque pas à sa)، أو ما يُقاربها.

ومن الترجمة الحرفية المُشوّه للمعنى والتي تجني على القرآن فتحطّ من قيمته الأسلوبية، تشير الباحثة زينب عبد العزيز إلى ترجمة بيرك لعبارة "ذات الصدور" الواردة في مواطن كثيرة

من القرآن، ومنها قوله تعالى:(إنّ الله عليم بذات الصدور) (آل عمران–119) بعبارة (L'être des poitrines)(Berque-83)، مع علمه بأنّ المقصود بذات الصدور القلوب، لأنّها وردت بهذه الترجمة عند من سبقه ومن عاصره؛ فكزيميرسكي على سبيل المثال يترجم الآية السابقة بقوله:

-Dieu connait le fond de vos cœurs. (p-58)

4- تحريف المعنى:

والمقصود بذلك ترجمة كلمة ذات دلالة معيّنة بكلمة في اللغة الهدف لا تحمل المحتوى الدلالي نفسه. وممّا أشارت إليه الباحثة في هذا السياق ترجمة بيرك لقوله تعالى:(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الرّاكعين)(البقرة–43)، حيث قال:

-Accomplissez la prière, acquittez la purification, inclinez-vous avec ceux qui s'inclinent.(31)

والمعلوم أنّ لفظ purification لا يدلّ على الزكاة في حدّ ذاتها، بل على الغاية من دفعها لمستحقّيها وهي تطهير الأموال، أمّا الزكاة فيقابلها في اللغة الفرنسية l'aumône légale، أو إن تعذّر فتكتب اللفظة العربية بأحرف اللغة اللاّتينية zakat. وما ذلك من الأمور التي تخفى عن السيّد بيرك، وله في الترجمات التي سبقت، وتلك التي عاصرت ترجمته، خير معين على أن يسقط في هذا التحريف، إن افترضنا أنه لم يكن مقصودا.

وممّا يندرج ضمن هذا المنحى ترجمته كلمة بعوضة الواردة في قوله تعالى:(إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها)(البقرة-26)، فقد قابل معظم المترجمين هذه الكلمة بmoustique أو moucheron إلاّ بيرك فقد قابلها بكلمة ciron، حيث جاء في ترجمته:

-Dieu ne répugne pas de tirer semblance d'un ciron ni de qui le dépasse.(29)

والمعلوم أنّ هذه الكلمة تطلق في اللغة الفرنسية على نوع من الديدان توجد في المأكولات الفاسدة (زينب-32). فهل هذه المغالطة نوع من الإساءة للقرآن بالإيحاء للقارئ أنّه يحتوي على الألفاظ تدلّ على أشياء خسيسة؟ علما أنّ الله عزّ وجلّ نزّه القرآن من مثل هذه الألفاظ، فإن كان ولابدّ من ذكرها عدل إلى الكناية عنها بألفاظ مقبولة.

ومن اختياره للكلمات التي لا تؤدّي المعنى المراد من الكلمة المعروضة على الترجمة، قوله في ترجمة لفظة "خليفة" الواردة في قوله تعالى: (وإذ قال ربّك إنّي جاعل في الأرض خليفة)(البقرة-30)، حيث ترجمها ب Lieutenant، فجاءت ترجمته على الشكل التالي:

-Lors, ton seigneur dit aux anges : Je vais instituer un lieutenant sur terre.(29)

لا شكّ أنّ هذه الكلمة تؤدّي في إحدى معانيها مفهوم من يخلف الرئيس، إلا أنّ ما تحيل عليه هذه الكلمة في الوقت الحالي

هو رتبة عسكرية تتوسط المرشح والنقيب، واستخدامها في هذا المقام يُضفي دون شكّ الصبغة العسكرية على القرآن، ممّا يدعّم الرأي السائد عند مفكّري الغرب بأنّ الإسلام قد انتشر بالسيف، وهو اعتقاد يفنّده التاريخ. ولعلّ هذا التوجه هو الذي يقصده بيرك في اعتقاد الباحثة.(زينب-33) وكان في وسع بيرك أن يجد كلمة أخرى تؤدّي المعنى دون أن تجور على القرآن ككلمة successeur أو vicaire مثلا.

5- الترجمة المغرضة للتراكيب:

ومن نماذج هذه الترجمة المشوّهة للمعنى والمسيئة لبلاغة القرآن، ساقت الباحثة ترجمة بيرك لقوله تعالى: (فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه)(البقرة-37)، والتي يقول فيها:

-Or Adam recueillit de son seigneur certaines paroles, le seigneur sur lui s'était repenti, car il est l'enclin-au-repentir, le miséricordieux.(30)

فجعل الله هو الذي تاب وليس آدم، ثم علّل لذلك بأن نسب لله أنه هو الميّال إلى التوبة؛ وكأنّ الله، وفقا لهذه الترجمة، يعاقب العباد ثمّ يندم فيسارع إلى التوبة، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا. ولم يكن لهذا التحريف الذي يمسّ العقيدة في صميمها أن يحدث لو أنّ المترجم لم يسلك الترجمة الحرفية، واعتدّ بالمعنى الأصل، لكنه لم يفعل لحاجة في نفس يعقوب.

وقد أعاد هذه الترجمة لمّا تعرض للآية 54 من سورة البقرة، في قوله تعالى:(فتاب عليه إنّه هو التوّاب الرحيم)، فجاءت ترجمته على النحو التالي:

-Et pourtant il s'est repenti à votre endroit .(32)

ومعناها: ورغم ذلك فقد تاب بدلا منكم. وكان كازيميرسكي أكثر توفيقا لمّا ترجم معنى هذه العبارة بقوله:

-Dieu agréa son repentir, il aime à revenir à l'homme qui se repenti.(p10)

ومن نماذج الترجمة المغرضة التي تسعى إلى التغاضي عن ذكر أمور تتعلّق بجوهر الإسلام ترجمته لقوله تعالى:(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون)(البقرة-4)، حيث قال:

-Ils croient à la descente sur toi opérée, à celle avant toi opérée, ils ont la certitude, eux, de la vie dernière. (26)

ففي عبارة "la descente sur toi opérée " من الركاكة ما لا يخفى على من له أدنى دراية باللغة الفرنسية، فهي ترجمة حرفية لا تراعي قواعد التركيب ولا السياق، لأنّ النزول ها هنا ليس هو " la descente" وإنما هو "la révélation"، وهي كلمة شائعة تستعمل للدلالة على نزول الوحي، وكذلك فهمها قبله كلّ من كازيميرسكي ومونتيه، كما يظهر ممّا يلي:

-Ceux qui croient à la révélation. (Kasimirski- 6)

- Ceux qui croient à ce qui t'a été révélé. (Montet-1/27)

غير أنّ بيرك، باستعماله لكلمة descente يكون كأنه قد أبى أن يعترف بنزول القرآن، فالقرآن عنده من وضع الرسول (ص)، تمامًا كما كانت تعتقد قريش.(زينب- 27)

ويتأكّد هذا الأمر إذا عدنا إلى ترجمته لكلمة مسجد؛ فأينما وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم إلاّ وترجمها ب sanctuaire أو oratoire، كما أشارت إلى ذلك الباحثة (زينب-22 و23)؛ فالمسجد الحرام الوارد ذكره في سورة الإسراء هو " le sanctuaire consacré" والمسجد الأقصى هو " l'oratoire ultime". وليست كلمة mosquée التي تقابل كلمة مسجد بغريبة عن بيرك، فهي متداول بكثرة في كتابات المستشرقين والمترجمين، وبهذه الكلمة ترجم مونتيه قبله كلمة مسجد كما يظهر من ترجمته للآية الأولى من سورة الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله).

-Gloire à celui qui a fait voyager son serviteur, pendant la nuit, de la Mosquée sainte (La Mecque) à la Mosquée éloignée (Jérusalem).(1/357)

وبالنظر إلى هذه المعطيات لا نملك إلاّ أن نؤيّد الباحثة في ما ذهبت إليه حينما عللت لعدم استعمال بيرك كلمة mosquée بتحاشيه الربط بين الإسلام والمسجد الأقصى منذ القدم.

6- ترجمات محرّفة لخدمة أغراض دينية:

من المعلوم أنّ رسول الله (ص) لم يكن يحسن القراءة ولا الكتابة، فهو بهذا الوصف أميّ، ولأجل ذلك خاطبه المولى عزّ وجلّ بقوله:(الذين يتّبعون النبي الأميّ)(الأعراف-157). وإذا كان هذا الوصف معروفا بحيث قوبل في بعض الترجمات الفرنسية بلفظ "illettré"،[5] فإنّ بيرك، لدواعي مغرضة كما ترى الباحثة (زينب-46)، سيترجمها بالعبارة التالية:

- Ceux qui suivent l'envoyé maternel.[6]

فاستعمل كلمة maternel لترجمة لفظ أمّي، وهي، وإن كانت الدلالة الاصطلاحية لهذه الكلمة، غير أنّها لا تتوافق مع هذا السياق، والرجل يعلم ذلك بدليل الهامش الذي خصّصه لشرح كلمة أمّي. ولا يمكن في هذه الحال إلاّ أن نوافق الباحثة حينما رأت في هذه الترجمة محاولة للتشكيك في أميّة الرسول (ص)، ومن ثمّ إمكانية القول بأنّه هو واضع القرآن من خلال ما طالعه من أسفار التوراة والإنجيل وما شابه ذلك.(زينب-46)

وقد أعاد في سياق آخر ترجمة لفظ أمّي ب"gentil" ومعناها الشائع "غير المؤمن دون اليهود والمسيحيين"(جبور_)، في حين ترجمها غيره بعبارة "Dépourvu de toutes instruction" (Kasimirski-48)، أو "Ignorant"(Montet-1/86)، وهي الترجمة الموافقة للسياق.

وفي مقام آخر ترجم بيرك قوله تعالى:(واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام) (النساء-1) بقوله:

-Prémunissez-vous envers dieu de qui vous vous réclamez dans votre sollicitation et aussi envers les matrices.(94)

حيث ترجم الأرحام ب"les matrices" وهي ترجمة حرفية لا تراعي السياق، لأنّ معنى الأرحام في هذا المقام هم الأقارب. فما دخل الرحم بمعناه الاصطلاحي ها هنا؟ اللهمّ إلاّ الإيحاء من طرف خفيّ أنّ بنية العائلة العربية هي بنية أموميّة، أي أن أصل النّسب فيها للأمّ، كما هو الحال عند اليهود.(زينب-32) فهل لهذا التوجيه من قبل الباحثة بعض من الحقيقة؟ قد يكون الأمر كذلك إذا ما عدنا إلى ترجمة الأرحام في آية أخرى، وهي الآية75 من سورة الأنفال، التي يقول فيها المولى عزّ وجلّ:(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)، وترجمتها عند بيرك:

-Quand aux parents par les femmes, ils ont la priorité les uns sur les autres selon le livre de dieu.(197)

فقد ترجم عبارة "أولو الأرحام" ب parents par les femme، أي الأقارب من طريق النساء (زينب-55)، وهي ترجمة بعيدة عن الصواب، لأنّ المقصود بأولي الأرحام في هذا السياق هم الأقارب من حيث النسب لا غير،وهذا ما دفع الباحثة إلى الجزم بأنّ قوله "القرابة من طريق النساء" محاولة منه لربط العقيدة الإسلامية بالعقيدة اليهودية، فهي وحدها التي كانت ما تزال لا تعتدّ بالنسب إلاّ عن طريق الأم.(زينب-55)

ولم يكن جاك بيرك ليجهل أنّ الأرحام وأولي الأرحام يدلاّن في اللغة العربية على العلاقات الأسرية، بدليل أنّه استعمل هذه الدلالة في ترجمته لكلمة الأرحام الواردة في قوله تعالى:(فهل عسيتم إن توّليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم)(محمد-23)، إذ قال في ترجمتها:

-Alors faut-il s'attendre à ce que, par votre dérobade, vous fassiez dégâts sur terre , et mettiez en pièces vos liens de parenté.(552)

ومن ترجماته التي تُسفر عن خدمة أغراض دينية غير معلنة، ترجمته لقوله تعالى:(لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح بن مريم)(المائدة-17). فالآية صريحة اللهجة في تكفير المسيحيين الذين نطقوا بهذا القول الذي ينسب الألوهية لعيسى بن مريم، وهو القول الذي تبنّاه القساوسة في مجمع نيقيا الأول في القرن الرابع الهجري.(زينب-39) غير أنّ بيرك تحايل على الآية بما يرفع تهمة الكفر عن بني دينه، فترجمها بقوله:

-Dénégateur sont ce qui assimilent à dieu le Messie fils de Marie.(124)

تثير هذه الترجمة الملاحظات التالية:

1-إنّ كلمة Dénégateur لا تدلّ على الكفر الصريح المؤكّد بقد في الآية، إذ المعلوم أنّ المقصود بهذه الكلمة في اللغة الفرنسية مجرّد الرفض.

2-إنّ الفعل assimiler لا يؤدّي معنى قالوا، فقال يتضمّن النطق بما هو مضمون القول؛ أي المسيح هو الله. وإنّما يدلّ هذا الفعل في اللغة الفرنسية على المماثلة أو المقاربة؛ أي الذين ماثلوا المسيح بالله...وشتّان ما بين المعنيين. وقد كان كازيميرسكي أكثر أمانة وأقرب إلى المعنى المراد حينما ترجم هذه الآية بقوله:

-Ceux qui disent que dieu c'est le Messie fils de Marie, sont des infidèles. (95)

تُرى ما الذي دفع بيرك إلى مثل هذه الترجمة، لاسيما وأنّ ترجمة "كفر" و"قالوا" ليس بالأمر الصعب عليه وهو العالم باللغة العربية؟ تعتقد الباحثة، وهي محقّة في ذلك، أنّ الداعي وراء هذا التشويه هو ترفّع بيرك عن وصم المسيحية بالكفر.(زينب-39)

ومن الترجمات المشوّهة للعقائد والشعائر الإسلامية، ترجمته لقوله تعالى:(إنّ الصفا والمروة من شعائر الله)(البقرة-158)، إذ قابلها بقوله:

-çafa et marwa font partie des repérages de dieu.(46)

تثير هذه الترجمة الملاحظات التالية:

1-لم يوظّف بيرك هامشا لشرح معنى الصفا والمروة، كما فعل كثير من المترجمين، وتركهما مبهمتين ممّا قد يوحي للقارئ الفرنسي أنّهما علامات يُقتفى بهما في الطريق.

2-يتدعّم هذا المعنى باستعماله لكلمة repérages الدالة على توجيه الإنسان نحو الطريق الذي يرغب في سلوكه.

3-لم يكن بيرك يجهل بأنّ لكلمة "شعائر" مقابل فرنسي يؤدّي دلالتها وهو "rites".

فما الذي دفع بيرك إلى اعتماد هذا الالتواء في ترجمته؟ إنّه - في اعتقاد الباحثة- التّغاضي عن ذكر إسماعيل(عليه السّلام) وأمّه هاجر، لأنّ الصفا والمروة شديدتا الاتّصال بهما، وأنّ ذكر إسماعيل يؤدّي حتما إلى ذكر نبوّته التي ورثها عن أبيه إبراهيم(عليه السّلام) قبل نبوة إسحاق(عليه السلام)، وذلك ما تحاول اليهود طمسه على مرّ الأزمنة.(زينب-59)

ومن الترجمات الركيكة المسيئة للذات الإلهية، ترجمته للآية الكريمة (صبغة الله ومن أحسن صبغة من الله)(البقرة-138)، إذ ترجمها بقوله:

-Une teinture de dieu , mais qui peut mieux teindre que dieu.(44)

فقد حوّل بترجمته هذه الله جلّت قدرته إلى صبّاغ مع كلّ ما في هذه الكلمة من دلالات تشخيصية للذات العليا. وما كان ليجهل أنّ الصبغة هاهنا قد استعملت من باب المجاز للدلالة على ترسّخ الإيمان في الإنسان، وكأنّ الإيمان قد صبغ فيه.

ولا يضاهي هذا الاستهزاء بالله إلاّ ترجمته للكرسي الوارد في قوله تعالى:(وسع كرسيه السموات والأرض)(البقرة-256)، بمقعد siège، ثمّ اعترافه في الهامش بأنّ "مقعد تعدّ ترجمة ضئيلة لكلمة كرسي...وهو عموما يحمل معنى العرش".(Berque-63)

وما دام أنه يدرك ذلك فلما عدل عنها إلى مقعد؟ وكان من قبله قد ترجموا الكرسي ب le trône كما هو الحال مع كازيميرسكي:

-Son trône s'étend sur les cieux et sur la terre. (40)

والحقيقة أن بيرك لم يتحول عن هذه الترجمة إلاّ لرغبة في قلبه: تشويه الإسلام بإلصاق النقائص بالله ورسوله.

خاتمة:

ليست هذه إلاّ عيّنة ممّا اقترفه جاك بيرك في حقّ القرآن من تحريف ومغالطات سعت الباحثة زينب عبد العزيز إلى إماطة اللثام عنها بكل ما أوتيت من علم وعزيمة، ولا ضير عليها إن هي لم تتبع منهجا بعينه لتتبّع سقطات هذا العالم الذي غرّ المسلمين، عربهم وعجمهم، بموضوعيته المفتعلة وصداقته المزعومة، قبل أن يُسفر عن وجهه الحقيقة.

الهوامش:

[1]- ذكرتها الباحثة في كتابها (ص14 وما بعدها)، ولا وجود لها في النسخة التي اعتمدت عليها، يبدو أنّ الباحثة اعتمدت على الطبعة الأولى، في حين اعتمدت على الطبعة الثانية المراجعة والمنقّحة.

[2]- تعرّض بيرك إلى بعض هذه القضايا في الكتاب الذي أصدره بعد الترجمة وعنونه "En relisant le Coran " وقد تُرجم إلى اللغة العربية بقلم " وائل غالي"، وقد صدر في العدد 154 من مجلّة القاهرة لسبتمبر 1995.

[3]- استعملت كلمة "النصر" 110 مرّة في القرآن الكريم.

[4]- خضعت في الطبعة الثانية للتصحيح بالشكل التالي: car dieu ne saurait faillir à son pacte(262)

[5] - KAZIMIRSKI – p.146 et E. MONTET – p.1/218.

[6]- صحّحها في الطبعة الثانية على الشكل التالي: En faveur de ceux qui suivent l'Envoyé, le prophète natif (181)

مصادر البحث:

- القرآن الكريم.
- الزمخشري- الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- دار الفكر- دمشق- د.ت
- جاك بيرك- إعدة قراءة القرآن- ترجمة: وائل غالي- مجلة القاهرة- ع154- سبتمبر 1995.

- د/ زينب عبد العزيز- ترجمات القرآن إلى أين؟ وجهان لجاك بيرك- دار الصابوني/ دار الهداية- مصر- ط1-1994.
- Le Coran , essai de traduction, Ed Albin Michel, 1995, édition revue et corrigée.
- Le Coran, traduction de Kasimirski, Ed Maxi-livres, 2002.
- Le Coran, traduction intégrale de Edouard Montet, Ed Payot, 1968.